

الحجاج والوظائف التداولية

أ. عبد العزيز مصباحي جامعة الوادي

الملخص:

لقد قامت اللسانيات التداولية على مجموعة من المفاهيم الاجرائية التي ساعدتها على إنجاز مهامها التي جاءت من أجلها، والتي تكمن في معالجة الظواهر اللغوية والعمل على تفسيرها، وكذا المساهمة في حل مشكلات العملية التواصلية ومعوقاتها المختلفة، هذا بالإضافة الى معرفة العوامل التي تجعل من الخطاب التداولي خطابا ناجحا، وذلك انطلاقا من كون اللسانيات التداولية علما تواصليا جديدا، وقد حصر الدارسون هذه المفاهيم في عدة عناصر من أبرزها الحجاج والوظائف التداولية؛ حيث يعتمد الحجاج على الدور الكبير الذي يقوم به المرسل من خلال اختياره للحجج المقنعة والأدلة المناسبة نظرا لوجود تفاوت في درجات الإقناع بين المتلقين متوسلا في ذلك باللغة التي تتحدد وظيفتها اعتمادا على السياق أو الموقف الذي ترد فيه .

Abstract:

Pragmatics has been made on the basis of some procedural concepts that help to treat and interpret linguistic phenomena in order to find solutions to the communicative process. One of the key concepts that Pragmatics studies to ensure the efficiency of discourse is argumentation. This last depends on the role of the transmitter ,who chooses the most convenience arguments in order to persuade, with the aid of language well adapted to the context.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، التواصل، الوظائف التداولية، الإقناع، المتلقي، الخطاب، السياق.

يعتبر الحجاج من أبرز الآليات التداولية التي ينبغي على المتكلم أن يتسلح بها نظرا لأهميتها البالغة وضرورتها التواصلية في مختلف السياقات والاستعمالات الكلامية؛ إذ قد تعترض المرسل بعض المواقف التي يحتاج فيها حتما-بجانب التواصل- إلى إثبات فكرة أو الدفاع عن رأي أو إقناع طرف بشيء ما، وقد لا يكون ذلك ممكنا إلا بوسائل لغوية ذات طابع حجاجي تدفع بالمتلقي إلى الاستجابة لما يصبو المرسل إلى تحقيقه بناءً على ما يقدمه من أدلة عقلية وبراهين منطقية وهو ما سنبيّنه ونحن نستعرض مفهوم الحجاج والوظائف التداولية كما سيتجلى بيانه في الآتي :

أولاً) مفهوم الحجاج:

لقد تعددت مفاهيم الحجاج بين مختلف علماء اللغة وتتنوع بتنوع الخلفيات المعرفية والفلسفية والتاريخية التي استند إليها كل واحد منهم؛ فهناك الكثير من النظريات والتصورات الحجاجية الكلاسيكية التي تعتبر الحجاج منتما إلى البلاغة الكلاسيكية

(أرسطو Aristote) أو البلاغة الحديثة (بيرلمان Perelman، تيتيكا TITICA، ميشال ميير M. Meyer) إلى المنطق الطبيعي (بول غرايس paul grice)¹ وفي علم اللغة النصي والنظرية الحجاجية المعاصرة عُرِّفَ الحجاج من زوايا شتى منها السمات الموضوعية العامة، أو البُنى اللغوية المميزة، أو الغرض البلاغي والوظيفة الاتصالية، أو النقاط سمة أولية مائزة... إلخ²، ويظهر ذلك في التعريفات المختلفة التي يمكننا استعراضها فيما يلي:

- الحجاج عند (أندرسين Andersen) و(دوفر Dover) هو "طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعوى المنطقية، وغرضها حل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات مُحكَّمة، والتأثير من وجهات النظر والسلوك"³.
من تعريف أندرسين ودوفر نرى أن الحجاج عبارة عن طريقة من التحليل يستخدم فيها المنطق للتأثير في الآخرين.

- الحجاج عند (ماس mass) هو "سياق من الفعل اللغوي تعرض فيه فرضيات (أو مقدمات) وادعاءات مختلف شأنها، هذه الفرضيات المقدمة في ذلك الموقف الحجاجي هي مشكل الفعل اللغوي"⁴.

والحجاج عند (شيفرين Chefren) هو "جنس من الخطاب، تبنى فيه جهود الأفراد عامة ومواقفهم الخاصة، في الوقت نفسه الذي ينقضون فيه دعامة موقف خصومهم"⁵.

والحجاج عند كل من (هايمان Haiman) و(فيجير figure) هو "عملية اتصالية، وهي كل ضرب من ضروب عرض البرهان الذي يعلل الفرضيات والدوافع والاهتمامات"⁶.

يبرز لنا من تعريف "ماس" و"شيفرين" و"هايمان" و"فيجير" كون الحجاج فعلا "لغويا" أو عملية اتصالية أو جنسا من خطاب تفاعلي مع إبراز مكوناته. والحجاج عند بيرلمان وتيتيكا هو "طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة"⁷. يدخل الإجمال على لفظ (الحجة) من الجهات التي يدخل منها على لفظ (التواصل)، فقد يحصل هو الآخر على معان ثلاثة:

الأول: الحجة بوصفها بناءً استدلاليا مستقل بنفسه، فلنصطلح على هذا المعنى باسم "الحجة المجردة" أو "الحجة التجريدية".
والثاني: الحجة بوصفها فعلا استدلاليا يأتي به المتكلم، فلنُسَمِّ هذا المعنى الثاني بالحجة التوجيهية.

والثالث: الحجة بوصفها فعلا "استدلاليا" يأتي به المتكلم بغرض إفادة المستمع بتقويم هذا الفعل، فلندع هذا المعنى الثالث باسم "الحجة التقويمية"⁸.

وخلاصة هذه التعريفات أن الحجاج جنس من الخطاب تُبنى فيه جهود الأفراد بدعامة مواقفهم الخاصة، حيث يعرض المتكلم مبررات لكلامه قصد إقناع الآخرين بصدق دعواه والتأثير في سلوكهم تجاه قضية معينة، كما يعتبر الإقناع الوظيفة الأولى

للخطاب الحجاجي، فمن مقاصد الخطاب الحجاجي التأثير في المستمع، واستمالته إلى فعل معين انطلاقاً من قضية الخلاف التي تكون بينه وبين المتكلم، فالإقناع (Persuasion) ضرورة يتطلبها الحجاج، كونه مرتبطاً بالمقام الخطابي والمخاطب في آن واحد، فهو محاولة واعية من المتكلم المُحاجج للتأثير في سلوك المستمع من خلال الاستراتيجية المتبعة في الخطاب الحجاجي

ويمكن الفصل بين الحجاج والإقناع، لأن " النص الخطابي نص إقناعي، ولكنه ليس نصاً حجاجياً"⁹؛ مما يعني أن كل خطاب حجاجي هو إقناعي بالضرورة، ولا يمكن أن يكون العكس، فكل خطاب إقناعي لا يمكن اعتباره خطاباً حجاجياً، والسبب في ذلك أن الإقناع مرتبط بأنواع أخرى للخطاب مثل الخطاب السردي والخطاب الوصفي، ومنه فارتباط الحجاج بالإقناع، مرّده إلى الوظيفة الحجاجية من وراء كل خطاب حجاجي، يهدف إلى دفع المستمع لفعل معين أو لتغيير سلوك أو معتقد، وهذا الهدف يتحقق بواسطة وسائل وتقنيات تتعلق في مجملها بمقاصد الخطاب والمتكلم المُحاجج، ودور المستمع المتلقي واللغة التخاطبية المدرجة ضمن الخطاب.

وتصنف الوسائل الإقناعية اعتباراً بما ترتبط به؛ فمنها الوسائل النفسية الاجتماعية، ومنها الوسائل المنطقية واللسانية، والوسائل النفسية الاجتماعية تتمثل أساساً في دور المتكلم المحاجج ومدى قدرته على تهيئة المستمع لما يقصده من خطابه الحجاجي، فالحجاج في النهاية ليس سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها، ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي، والتحامها مع الطرح المقدم، وإذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان، فإن الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير.

أما الوسائل المنطقية واللسانية، فتتمثل في دور لغة الحجاج المعتمدة أثناء التخاطب " فاللغة في الخطاب الحجاجي تقوم بدور جوهري وفاعل، في تحقيق التأثير والاستمالة؛ فالمفردات والتراكيب التي يختارها المتكلم لوصف حدث ما، تعكس موقفه تجاه ذلك الحدث"¹⁰، مما ينعكس على المتلقي في حد ذاته لقبول أو رفض ذلك الموقف. إن دور اللغة لا يندرج في إثارة المشاعر والانفعالات فقط بالنسبة للمستمع، وإنما في تقديم الحجج والأدلة وفق منطق يستميل هذا المستمع ويجعله موجّهاً ومُنْهَجاً لطريقة بناء الحجاج.

ولا بد أن تتوفر مجموعة من السمات والشروط في المتكلم المحاجج لغاية تهيئة المستمع لقبول النتائج المقصودة، من خلال استمالته والتأثير في مواقفه؛ " فتأثر المتلقي واستجابته للرسالة يرجع- في غالب الأحيان- إلى الإرسال نفسه، إلى الصورة والمظهر، ولو كانت الرسالة رسالة مُحاججة ومناظرة"¹¹. ولعل أهم هذه السمات والشروط ما يلي:

1- دراية المتكلم وقدرته على الإحاطة بالمستمع الذي يوجه إليه خطابه الحجاجي، ورصيده الثقافي الحضاري، وتطلعاته وطموحاته، لأن الخطأ في تصوّر هذا المستمع لا يوصل إلى النتائج المرجوة، فقد تكون عكس ما قُصد به من البداية.

- 2- حسن تلاؤم موضوع الخطاب الحجاجي مع المقام، خاصة ما تعلق بالزمان والمكان.
- 3- اختيار المتكلم للمقدمات المعتمدة في الحجاج، على أساس قضايا احتمالية، قابلة للحوار والنقاش، تمكّن من شدّ انتباه المستمع، لأنه إذا لم يتوافق معها من بداية الطرح فإنه لا يقبل نتائجها.
- 4- سعي المتكلم إلى تحقيق مبدأ التعاون أثناء الخطاب، كي لا يصبح الحجاج فرضاً وإلزاماً على المستمع، بل يترك المجال بين الأخذ والردّ في الحوار، ليتمكن عقل المستمع من الاندماج في الموضوع، وإعمال الفكر للاستنتاج والاستنباط.
- 5- اعتماد المتكلم المحاجج لغة طبيعية، مع حسن تأديتها بعيداً عن الانفعال والتكلف، غايتها استمالة مشاعر المستمع من خلال مخاطبة وجدانه وعواطفه.
- 6- استعمال المتكلم المحاجج لإشارات وحركات محددة ومنتقاة أثناء التخاطب؛ والتي من شأنها أن تؤدي وظائف إفهامية وتأثيرية في المستمع إلى جانب ما تؤديه الألفاظ والعبارات من دلالة، ومن هذه الإشارات (حركات الرأس والحاجبين واتجاه النظر...)، وللإشارة فإن هذا الأمر متعلق بالحجاج الشفهي، أما إن كان نصاً مكتوباً فإن مفردات اللغة ودلالاتها تقوم مقام الإشارات والحركات.
- 7- إبراز المتكلم المحاجج لمدى اقتناعه بصحة ما يقصد من نتائج وظهور ذلك في واقعه العملي والملموس.

ثانياً) الوظائف التداولية:

لقد تجاوز الدرس التداولي فكرة الوظيفة الوحيدة للغة التي هيمنت منذ زمن طويل -وهي الوظيفة التواصلية- وتعدّها إلى الوظيفة التأثيرية في السلوك الإنساني، والتي تنبني عليها تغيرات في المواقف والآراء.¹²

وتعرّف الوظيفة بحسب معجم (ديبوا **diboi**) بأنها "الدور الذي تؤديه الوحدة اللسانية في البنية التركيبية للملفوظ، ويعدّ كل من الجملة مشاركاً في معناها العام".¹³

وفي معجم (جورج مونا **Georges Mounin**) تقوم وجهة النظر الوظيفية في التحليل اللساني على وصف بنية لغة ما والتي تعرف قبل كل شيء بأنها وسيلة تواصل، وفي هذه الحال فهي كل الوحدات اللسانية والعلاقات المتبادلة بينها، وتحل وتوصف بدورها ووظيفتها في مؤسسة التواصل.¹⁴

نستخلص من هذين التعريفين أن تحديد الوظيفة اللغوية من الجانب اللساني تقوم أساساً على فكرة التواصل، بحيث يؤدي كل عنصر دوره في عملية المشاركة التواصلية، وتكون عملية التواصل عن طريق العلاقة المتبادلة بين الوحدات اللسانية، حيث تحل هذه العناصر وتوصف بدورها وظيفتها.

إنّ مهمة الوظائف التداولية أن تحدد وضعية مكونات الجملة بالنظر إلى البنية الإخبارية والمعلوماتية، في علاقة الجملة بالطبقات المقامية المحتمل أن تنجز فيها، فهي إذا مرتبطة بالسياق والمقام، ومدى إنجازيتها في واقع التواصل.¹⁵

إنّ مجموع الوظائف التداولية حسب "سيمون ديك" Simon Dik "أربع وظائف وهي (المحور، البؤرة، المبتدأ، والذيل) ويضيف "أحمد المتوكل" الوظيفة الخامسة وهي (المنادى)، كما قام هذا الأخير بتقسيمها إلى نوعين وهما الوظيفتان (الداخلية والخارجية)¹⁶، وفيما يلي تعريف لهذه الوظائف:

1 - الوظيفتان الداخليتان:

أ) الوظيفة البؤرة:

إنّ التعريف السائد في النحو الوظيفي للبؤرة هو ما اقترحه "سيمون ديك"، والذي يقوم أساساً على فكرة أن وظيفة البؤرة تسند إلى المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزاً في الجملة¹⁷، ويمكن أن نميز نوعين من البؤرة، بؤرة الجديد وبؤرة المقابلة:

- **بؤرة الجديد:** تعرف بؤرة الجديد بأنها البؤرة المسندة إلى المكون الحامل للمعلومة التي يجهلها المخاطب (المعلومة التي لا تدخل في القاسم الإخباري المشترك بين المتكلم والمخاطب).

- **بؤرة المقابلة:** البؤرة التي تستند إلى المكون الحامل للمعلومة التي يشك المخاطب في ورودها أو المعلومة التي ينكر المخاطب ورودها.¹⁸

ب) الوظيفة المحور:

يقترح "سيمون ديك" تعريفاً بالنسبة لوظيفة المحور وهو "أنها تستند إلى المكون الدال على ما يشكل المحدث عنه داخل الجمل"¹⁹، والمحور هو الذات التي تشكل محط خطاب ما، أو الذات التي تشكل موضوع حمولة المعلومات الواردة في الخطاب.²⁰

وللتوضيح نأخذ الجملتين التاليتين كمثال على ذلك:

- متى رجع زيد؟

- رجع زيد البارحة.

يشكل المكون زيد محور الجملتين لدلالته على الشخص المحمول عليه بقية الجملة متى رجع في الجملة الأولى ورجع البارحة في الجملة الثانية، ويأخذ هذا المكون وظيفة المحور بمقتضى الوضع التخاطبي القائم بين المتكلم والمخاطب في طبقة مقامية معينة، فزيد في الجملتين يدل على المحدث عنه مع الفرق الآتي:

- يدل زيد، في الجملة الأولى على الشخص الذي يشكل محور الاستخبار.

- ويدل في الجملة الثانية على الشخص الذي يشكل محور الإخبار.²¹

نستخلص مما ذكره حول الوظيفتين الداخليتين "البؤرة" و"المحور" أن كلاً منهما يستند إلى عناصر تنتمي إلى الجملة ذاتها، حيث أن الوظيفة الأولى "البؤرة" تستند إلى المكون الأكثر بروزاً في الجملة، في حين أن الوظيفة الثانية "المحور" تستند إلى المكون الدال على ما يشكل المحدث عنه داخل الجملة.

2- الوظائف الخارجية:

وهي ثلاثة وظائف: المبدأ، والذيل، والمنادى، وهي كالتالي:

أ) الوظيفة المبتدأ:

المبتدأ هو ما يحدد مجال الخطاب الذي يعتبر الجمل بالنسبة إليه وارداً، ولنأخذ مثالا على ذلك (زيد، قام أبوه)، فإن لهذه الجملة تمثيل أولي كما يلي:

- زيد (مبتدأ)

- قام أبوه (حمل).²²

ب) الوظيفة الذيل:

يقترح "سيمون ديك" لوظيفة الذيل التعريف الآتي: "يحمل الذيل المعلومة التي توضح معلومة داخل الجمل أو تعدلها".²³

من خلال هذا التعريف نستخلص أن للذيل دوران من الناحية الإخبارية للجملة؛ دور توضيح المعلومة ودور تعديلها، ويمكن أن نميز داخل الوظيفة بين ثلاثة أنواع من الذيل:

- **ذيل التوضيح:** يعطي المتكلم المعلومة، فيلاحظ أنها ليست واضحة الوضوح الكافي، فيضيف المعلومة لإزالة الإبهام.
- **ذيل التعديل:** يعطي المتكلم معلومة فيلاحظ أنها ليست بالضبط المعلومة المقصود إعطاؤها، فيضيف المعلومة التي تعدلها.
- **ذيل التصحيح:** يعطي المتكلم المعلومة ثم يرى أنها المعلومة هذه غير مقصودة، فيضيف المعلومة قصد تصحيحها.²⁴

ج) الوظيفة المنادى:

تسند هذه الوظيفة إلى الكائن المنادى في مقام معين، وينبغي التمييز بين المنادى بعده فعلا لغويا، وبين المنادى بعده وظيفة، فالوظيفة التداولية مرتبطة بالمقام، على نحو ارتباط وظيفة المبتدأ أو الذيل.

الهوامش:

¹- ينظر، أبوبكر العزاوي، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2009، ص19.

²- محمد العبد، النص و الخطاب و الاتصال، الاكاديمية الحديثة للكتاب، القاهرة، ط1، 2005، ص187.

³- المرجع نفسه، ص نفسها.

⁴- المرجع نفسه، ص188

⁵- المرجع نفسه، ص 188، 189.

⁶- المرجع نفسه، ص189.

⁷- المرجع نفسه، ص188.

⁸- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلاني، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط2، 2006، ص255.

⁹- محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، فصول مجلة النقد الأدبي، ع60، صيف- خريف 2002، ص45.

- ¹⁰ - جميل عبد المجيد ، البلاغة والاتصال ،دار غريب للطباعة و النشر، ط 1 ، 2002، ص 118.
- ¹¹ - المرجع نفسه، ص 148.
- ¹² - ينظر، خليفة بوجادي، خصائص التركيب اللغوي في بوابات النور للشاعر الجزائري عبد القادر بن محمد بن القاضي-دراسة في الوظيفة التداولية- أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، قسنطينة، 2005-2006، ص 117.
- ¹³ - المرجع نفسه، ص 118.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص نفسها.
- ¹⁵ - ينظر، خليفة بوجادي، مرجع سابق، ص 119.
- ¹⁶ - ينظر، المرجع نفسه، ص 120.
- ¹⁷ - أحمد المتوكل، مرجع سابق، ص 28.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص 28، 29.
- ¹⁹ - أحمد المتوكل ، مرجع سابق، ص 69.
- ²⁰ - خليفة بوجادي، مرجع سابق، ص 121.
- ²¹ - أحمد المتوكل، مرجع سابق، ص 69.
- ²² - أحمد المتوكل، مرجع سابق، ص 115.
- ²³ - المرجع نفسه، ص 147.
- ²⁴ - ينظر، المرجع نفسه ص 147، 148.